

حول علم الترسيين (١)

مِيزة البيكان في نشأة الإنسان كيف نشأت اللغة في المجتمع البشري؟ الأستاذ خليل عبدالله

المقدمة :

حادثة البيان عند الإنسان من الحوادث الغامضة ، والمثيرة جدا ، وهي أيضا مفرقة بالعمق ، لا يكاد إنسان اليوم يجد لها جوابا مقنعا .. حيث انها تتعلق بتاريخه الغامض . بعض الشيء ، كما يدور حولها تكهنات عديدة ، وي طرح على بساطها عدة أسئلة . هي :

اولا — كيف نطق الإنسان الاول وأبان من مدركاته ؟ ..

ثانيا — بآية لغة نطق ؟ ..

ثالثا — هل كان لديه ذخيرة من الالفاظ اطلقها على المراد بيئته بيمتضى الحال ام انه تناول الفاظه من تلك البيئة ؟؟ ..

رابعا — هل كانت تلك اللغة الاولى التي دوت الفاظها على البسيطة هي ام اللغات . واسلمها الامسيل ؟ .. أم ان لكل لغة نبعا مستقلا ؟ ..

الجواب عن هذه الاسئلة وامثالها . يحتاج الى جهد كبير لكي يوفيه الباحث حقها . ولانها مفرقة في الابهام . عميقة عمق التاريخ . ولابد لمن اراد ان يتحدث عنها من تقصي كل ما قيل عن الإنسان الاول . سواء من طريق نقلي أو من طريق عقلي . أو من

طريق علمي ... وبعد استحضار الطرق واستقراء الأدلة ، يبقى الراجع منها لبعض عناصر هذا البحث قائما على الاحتمال .

اذن لابد لنا من دراسة ما قاله التاريخ القديم . وما جاءت الكتب السماوية حول هذا الموضوع . كما لابد لنا من ان نحقق فيما وصل اليه علماء اليوم سواء في الجيولوجيا أو في الفلك أو في النفس أو في الحياة والحيوان والنبات أو في الفيزيولوجيا والذرة . وما شابه ذلك .. ثم نخرج بنظرية أو أكثر حول هذا البحث لعل فيها نفعا للباحثين .. ومتمعة للمتفكرين .

النظرة الحيوانية :

لقد درجت اغلب علوم العصر وعلمائه في مختلف المجالات الطبيعية والحياتية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والكونية وغيرها كثير .. على تبني مبدأ التطور . والبناء على اساس مذهب التطوريين .. فما هذا المذهب ؟ .. وماذا يقول ؟ .. وما هي نسبة الصواب فيما يقول ؟ ..

يعود هذا المذهب الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما أصدر دارون (Darwin) كتابه المسمى اصل الانواع — سنة 1859 ، ومن ثم كتابه الثاني اصل الإنسان — سنة 1871 . ومن ذلك الزمن تغيرت نظرة الإنسان الى نفسه . والى

كونه والى تاريخه .. حيث دوت نظرية دارون معلنة ان الحياة قد تطورت من الخلية الواحدة الى الانسان المعقد .. وهذا الانسان قد تطور من حيوان سابق الى حيوان يشبه الانسان (القرد) الى انسان يشبهه الحيوان (الحلقة المفقودة) .. الى الانسان .

ولقد حطبت هذه النظرية كل ثبات في نظر العلماء والعامية وساعدها عدة عوامل قوية في ميادين السياسة والحضارة والمعتقدات — لا مجال الى شرحها هنا — وتلقاها الجميع بذهول ثم بكل ترحيب . وحملها العامة والخاصة . العلماء والسوقة ، بكل نشوة وعصبية فترة من الزمان ، بدون اعمال العقل وتحكيم الضمير .. وكان الزمان كغليلا بأخاد هذه الثورة في النفوس .. ورجع هؤلاء الناس الى مقولهم ، وتناولوا النظرية من جديد ، بحثا وتدقيقا .. فكان منهم من ردها نهائيا . ومنهم من عدل فيها . ومنهم من بقي ينفخ في رؤوس الناس لقبولها ، مستهدفا بعض الغايات .. — او الاخرى نفس الغايات التي وجدت النظرية بسببها .

العالم الدارويني الحديث — جوليان هكسلي — يؤمن بالتطور كاستاذ دارون ولكن يخالفه بحيوانية الانسان . ويمتد ان الانسان متفرد بيولوجيا وسيكولوجيا ويتطور على قاعدته الانسانية الخاصة لا على القاعدة الحيوانية . كما يرفع هكسلي من الانسان صفة المادية البحث ، ويلفت النظر الى عمل الفطرة الخلاقة في نفس الانسان (بيولوجيا) وان له خصائص لم تلاحظ في أي حيوان . ولهذه الخصائص آثار متفردة .

ولنستمع اليه يقول في كتابه (الانسان في العالم الحديث) — ترجمة حسن خطاب — « لقد تارجح الانسان كالخطر (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين اهجابه الشديد او القليل بنفسه . يفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا ، وحينما آخر هوة صغيرة جدا . »

« ويظهر نظرية دارون بدا الخطر (البندول) بتارجح مكسبا ، واعتبر الانسان حيوانا مرة اخرى .. ووصل الخطر شيئا فشيئا الى انفس مدى تارجه ، وظهر ما بدا انه النتائج المنطقية لمعرض دارون . فالانسان كغيره من الحيوانات . ولذلك فان آراءه في معنى الحياة الانسانية ، والمثل العليا ، لا تستحق تقديرا اكثر من آراء الفودة الشريطية او بكتريا الباشلس . والبقاء هو المقياس الوحيد للتجساح

التطوري . ولذلك نكل الكائنات الحية متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم الا فكرة انسانية . ومن المسلم به ان الانسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطرة او الفار . »

« ولم تصغر الهوة هنا بين الانسان والحيوان . نتيجة المبالغة في اعطاء الحيوان صفات الانسانية ، وانما نتيجة التقليل من الصفات الانسانية في الانسان .. ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، سببه في الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي »

« ان الخطر بتارجح ثابته : وتنسج الهوة بين الانسان والحيوان مرة اخرى .. وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا (1) ولكنه بدا يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفي حالات كثيرة لا مثيل له . وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ نضجه بعد .. وما هذا المثال الا محاولة لعرض مركزه الحالي ...

« وأول خصائص الانسان اللذة ، واعظمها وضوحا . قدرته على التفكير التصوري — التخيل — ولقد كان لهذه الخاصية الاساسية في الانسان نتائج كثيرة .. وكان اهمها نمو التقاليد المتزايدة — الناشئة من رميد التجارب الانسانية — ومن اهم نتائج تزايد التقاليد — او اذا شئت من اهم مظاهره الحقيقية — ما يقوم به الانسان من تحسين لمبا لديه من عدد وآلات .. وان العدد والتقاليد لمي الخواص التي هيأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية ... وهذه السيادة « البيولوجية » — في الوقت الحاضر — خاصة اخرى من خواص الانسان اللذة « (ص 5/3)

وهكذا يضع علم الحياة — الانسان — في مركز مماثل لما انعم به عليه كسيد المخلوقات .. كما تقول الادبيان .. (2) « .

« ولقد ادى الكلام والتقاليد والعدد الى كثير من خواص الانسان الاخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الاخرى ، ومعظمها واضح معروف . »

« والانسان لا مثيل له ايضا كنوع مسيطر . اذا انقسمت كل الانواع الاخرى المسيطرة الى مئات وآلاف كثيرة من الانواع المنفصلة ، وتجمعت في أجناس

ومصائل عديدة ومجموعات أكبر . أما الإنسان فلا يحد حافظ على سيادته من غير انقسام . ولقد تم تنوع سلالات الإنسان في حدود نوع واحد .

« وأخيرا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

« وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره .. ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الإنسان في تطوره . وأما خاصية الإنسان الجوهرية ككائن هي مسيطر فهي « التفكير المعنوي » .

ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة عامة في خصائص الإنسان من ناحية التطور والمقارنة . والآن نعود إليها . ونبحث فيها وفي نتائجها بشيء من الأسهاب .. فلماذا يجب ألا يعزب عن بالنا ، أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما نضن عادة .. وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات . ولكنها تبدو عاجزة من معرفة طرق جديدة . وليست الثدييات بأفضل من ذلك .. بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ . ولابد أن يكون سلوك الحيوانات مرميا - أي أنه ثابت في حدود ضيقة - أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حرا نسبيا .. حرا في الأخذ والعطاء على حد سواء .. ولهذا الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية .. والإنسان أيضا لم يرد في بعضها . فقد أدت هذه المرونة مثلا إلى كون الإنسان الكائن الحي الوحيد ، الذي لا بد له أن يتعرض إلى الصراع النفسي .. ومع ذلك فطبقا للآراء الحديثة توجد في الإنسان أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهي التي يعرفها علماء النفس بالكمبت والقمع .

« وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان ، والتي يمكن تسميتها - نفسية - أكثر منها - بيولوجية - تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

الاولى : قدرته على التفكير العام والخاص .

الثانية : التوحيد النسبي لعملياته العقلية ، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها . (ص 32)

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان (3) وهي بلاشك مريدة من الناحية البيولوجية . ولنذكر منها العلوم الرياضية والمواهب الموسيقية ، والتقدير والإبداع الفنيين ، والدين ، والحب المثالي ..

« ولكن لا يكفي هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط . على الحقيقة أن معظم أوجه النشاط الإنساني وخواصه ، نتائج ثانوية لخواصه الأصلية . وكذلك فهي مودة من الناحية البيولوجية .. وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد ..

« وبذلك يكون الإنسان مريدا في أحواله أكثر مما نظن الآن » انتهى كلام هسكلي .

وأما العالم الأمريكي : « أ . كريسي موريسون » فإنه يرد على نظرية (النشوء والارتقاء) ردا علميا ويستبعد بالكلية أي ارتباط بين الإنسان وبين الحيوان كما أنه يستنكر أن يقوم الإنسان هكذا لوحده ابتداء من الخلية وعلى مبدأ الصدفة ولنقرأ ما كتب هذا العالم في كتابه (Man does not stand alone) الذي ترجمه إلى العربية محمود صالح الفلكي بعنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) :

« أن القائمين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة (الجينات) (ص 145) .

« لقد رأينا أن « الجينات » متلق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهي تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التي لكل شيء هي . وهي تتحكم تفصيلا في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات ، تماما كما تقرر الشكل والقشور والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان » (ص 147) .

... « وبلاحظ أن جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها . حتي أن الحيوانات المتقاربة تنفصل بعضها عن بعضها كذلك » .

« والإنسان حيوان من رتبة الطليعة ، وتكوينه يشبه فصائل (السبيا) - الأورنجتان والفوريلا

والشبهانزي - ولكن هذا الشبه الهيكلى ليس بالضرورة برهانا على اننا من نسل اسلاف سيمائية من القروء او ان تلك القروء هي ذرية منحطة للانسان . ولا يمكن احد ان يزعم ان سمك القد (Cod) قد تطور من سمك الحساس (Haddock) وان يكن كلاهما يسكن المياه نفسها ، وياكل الطعام نفسه . ولهما عظام تكاد تكون متشابهة ... (ص 142)

« ان ارتقاء الانسان الحيوانى الى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة اعظم من ان تتم من طريق التطور المادى . ودون قصد ابتدائي .

واذا قبلت واقعية القصد . فان الانسان بوصفه هذا قد يكون جهازا .. ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز ؟ . لانه بدون ان يدرك . لا فائدة منه والعلم لا يعمل من بتولى ادارته . وكذلك لا يزعم انه مادى .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لان نوقن بان الله قد منح الانسان قبسا من نوره . ولا يزال الانسان في طور طفولته من وجهة الخلق . وقد بدأ يشمر بوجود ما يسميه (بالروح) وهو يرقى في بطنه ليدرك هذه الهبة . ويشمر بفريزته بانها خالدة .

« واذا صح هذا التعليل - ويبدو ان المنطق الذي يسند له لا يمكن دحضه - فان هذه الكرة الارضية الصغيرة التي لنا . وربما غيرها كذلك : تكسب اهمية لم يحلم بها احد من قبل . فعلى قدر ما نعلم قد تولد من عالمنا الصغير هذا . اول جهاز مادى اضيف اليه من نور الله . وهذا يرفع الانسان من مرتبة الفريزة الحيوانية الى درجة القدرة على التفكير . التي يمكن بها الان ان يدرك عظمة الكون في اشتباكاتة . ويشمر شمورا غامضا بعظمة الله مائلة في خلقه . (ص 187 - 188)

« ان اية ذرة او جزيئة Atom, Molecule لم يكن لها فكر قط . واي اتحاد للعناصر لم يتولد منه راي ابد . واي قانون طبيعى لم يستطع بناء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعسا لحوائز معينة للحياة هذه الكائنات تنتظم شيئا تطيعه جزيئات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحي ؟ .. هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات ؟ اجل .. وماذا ايضا ؟ شيء غير ملموس . اعلى كثيرا من المادة لدرجة انه

يسيطر على كل شيء ومختلف جدا عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، لدرجة انه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه . ان روح الانسان هي سيدة مصيره ، ولكنها تشمر بصلتها بالمصدر الاعلى لوجودها . وقد اوجدت للانسان قانونا للاخلاق لا يملكه اي حيوان آخر ، ولا يحتاج اليه . فاذا سمى احد ذلك الكيان بانه فضلة لتكوينات المادة : لا لشيء سوى انه لا يعرف كتبه بانبوبة الاختيار ، فهو انما يزعم زعما لا يقوم عليه برهان .. انه شيء موجود ، يظهر نفسه باعماله . وينفخحياته ويسيطرته على المادة ، وبالاخص بقدرته على رفع الانسان المادى من ضعف البشر وخطئهم الى الانسجام مع ارادة الله .. هذه هي خلاصة القصد الرباني . وفيها تفسير للاشتياق الكامن في نفس الانسان للاتصال باشياء اعلى من نفسه . وفيها كشف عن اساس حائزه الدينى .. وهذا هو الدين .. (ص 201 - 202) .

واما عالم الحياة (الكسيس كاريل) فانه يعتبر ان الانسان حدث فذ مميز وعالم فرد ليس له مثيل على ارضنا هذه : كما يعتبر اننا لا نعلم شيئا من هذا الانسان المجهول المعقد ، وذلك في كتابه (الانسان ذلك المجهول) وقد حربه السيد شليق اسعد فريد .

ولنتقل الآن بعض هذه المعاني :

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجياد وعلوم الحياة .. فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها ، بسداد ومصاحة ، باللفظة الحسابية وقد انشأت هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة . انما تنسج حول هذا العالم نسجا رائعا من الاحصاءات والنظريات .

« بيد ان موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف . حتى لبدو وكان الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم في غاب متشابك الاشجار ، او انهم في قلب دغل سحري : لا تكف اشجاره التي لا عداد لها عن تغيير امكانها واحجامها فهم يزرعون تحت عسبه اكداس من الحقائق : التي يستطيعون ان يصفوها ، ولكنهم يمجزون عن تعريفها او تحديدها في معادلات جبرية . فمن الاشياء التي تراها العين في عالم الماديات ، سواء كانت ذرات ام نجوما صخورا ام سحبا ، صلبا ام ماء .. امكن استخلاص خواص معينة كالكتل والابعاد الانشاعية .. وهذه المستخلصات - وليست

كيف تتحد جزيئات المواد الكيميائية لكي تكون المركب والاعضاء الموقفة للخلية ؟

كيف تقرر « الجينيس » — ناقلات الوراثة — في نواة البويضة الملقحة ، صلات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟؟

كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها مثل الانسجة والاعضاء ؟ لمهي كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع ، وتساعد العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته .

« ما هي طبيعة تكويننا النفسي والسيولوجي ؟ اننا نعرف اننا مركب من الانسجة والاعضاء ، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزا . اننا ما زلنا بحاجة الى معلومات كاملة تقريبا عن سيولوجية الخلايا العصبية .. الى اي مدى تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الاعضاء ؟ على اي وجه تستطيع الخصائص العنصرية العقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة طريق الحياة والمواد الكيميائية الموجودة في الطعام والبيئة ، والنظم النفسية والادبية ؟

« اننا ما زلنا بعيدين جدا من معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والمضلات والاعضاء . ووجوه النشاط العقلي والروحي .. وما زلنا نجعل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ، ومقاومة التعب ، والكناح غدا الامراض .

« اننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الاهساس الادبي . وقوة الحكم ، والجرأة .. ولا ماهي الاهمية النسبية للنشاط العقلي والادبي .. كذلك النشاط الديني

« اي شكل من اشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور او الخواطر ؟..

« لاشك مطلنا في ان عوامل سيولوجية وعقلية هي التي تقرر السعادة او التماسه ، النجاح أو الفشل .. ولكننا لا نعرف ما هي هذه العوامل .. اننا لا نستطيع ان نهيب اي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة سفاكية .

« وحتى الآن ما زلنا لا نعرف اي البيئات أكثر صلاحية لانشاء الرجل المتحدين وتقدمه .

الحقائق العلمية — هي مادة التفكير العلمي .. ملاحظة الاشياء تدنا فقط بأقل صور العلم شأننا ، ونعني بها الصورة الوصفية . فالعلم الوصفي يرتب الظواهر . بيد ان العلاقات التي لا تتغير بين الكميات غير القابلة للتغيير — اي القوانين الطبيعية — تظهر فقط عندما يصبح العلم أكثر معنوية . وما ذلك النجاح العظيم السريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء الا لانهما علمان معنويان كميان . فعلى الرغم من انهما لا يدميان انهما يكشفان القناع عن الطبيعة النهائية للاشياء فانهما يبداننا بقوة التنبؤ بحوادث المستقبل . وتقرير كيفية وقوعها طبقا لارادتنا . وبتملينا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء موجود على ظهر البسيطة فيما عدا انفسنا ..

« ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة — والانسان بصفة خاصة — لم يصب مثل هذا التقدم .. انه لا يزال في المرحلة الوصفية .. فالانسان ككل لا يتجزأ . وفي غاية التعقيد . ومن غير المسور الحصول على مرض بسيط له . وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعته او في اجزائه ، في وقت واحد . كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي .

« ولكي نحلل انفسنا فاننا مضطرون الى الاستعانة بفنون مختلفة . والى استخدام علوم عديدة .. ومن الطبيعي ان تصل كل هذه العلوم الى رأي مختلف في غايتها المشتركة . فانها تستخلص من الانسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغها فقط . وبمقد ان تفك هذه المستخلصات بعضها الى بعض . فانها تبقى اقل غناء من الحقبة الصلبة .. انها تخلف وراءها بقية عظيمة الاهمية ، بحيث لا يمكن اكمالها

« .. اننا لا نفهم الانسان ككل .. اننا نعرفه على انه مكون من اجزاء مختلفة وحتى هذه الاجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من مركب من الاشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة ..

« وواقع الامر ان جهلنا مطبق . فغالب الاسئلة التي يلتقيها على انفسهم اولئك الذين يدرسون الجنس البشري تغل بلا جواب : لان هناك مناطق غير محدودة من دنيانا الباطنية : ما زالت غير معروفة . ونحن لا نعرف حتى الآن ، الاجابة عن أسئلة كثيرة مثل :

« هل في الامكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجي والروحي ؟ »

« كيف نستطيع ان نحول دون تدهور الانسان وانحطاطه في المدنية المصرية ؟ »

وهناك اسئلة اخرى لا حداد لها ، يمكن ان تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الاهمية بالنسبة لنا .. ولكنها ستظل جميعا بلا جواب .. فمن الواضح ان جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ، غير كاف ، وان معرفتنا بانفسنا ما زالت بدائية في الغالب ... » (ص 13 - 18) .

« ان معرفة نفوسنا لن تصل ابدا الى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد والجمال ، التي بلغها علم المادة . اذ ليس من المحتمل ان تختصص العناصر التي اخرت تقدم علم الانسان .. لمعلمينا ان ندرك بوضوح ان علم الانسان « هو اصعب العلوم جميعا » .

« ان الفردية جوهرية في الانسان . انها ليست مجرد جانب معين من الجسم اذ انها تنفذ الى كل كياننا .. وهي تجعل « الذات » حدثا فريدا في تاريخ العالم .. انها تطبع الجسم والشمور . كما تطبع كل مركب في الكل بطابعها الخاص . وان ظلت غير منظورة .. » (ص 281) انتهى كلام كاريل .

هذا نموذج مصغر من الرد العلمي للنظرية القائلة بحيوانية الانسان ، واما من وجهة النظر السياسية للنظرية فيها ميدان لا يستهان به الخصه فيما يلي :

ان حيوانية الانسان هذه — كما يزعمون — لها اصل اصيل في احد الكتب المقدسة لدى الطوائف اليهودية .. ولكنها حيوانية تختص فقط بالاميين غير اليهود ، فاليهودي هو الانسان فقط ، وهو من نسل ابيه آدم الذي خلقه الله بيده ، واما غير اليهودي فهو من اصل حيواني قد طوره الله الى شكل الانسان لكي يكون جديرا بخدمة شعب الله المختار ، هذا وقد اختلف الحاخامات حول اصل الاميين (غير اليهود) فقال بعضهم : من نطفة حصان .. وبعضهم قال من نطفة كلب وبعضهم وبعضهم .. ولكن (دارون) كان

اذكى واعلم بالحيوان فوجد ان القرد هو اقرب هيكل الى الانسان من غيرها من الحيوانات فانتشرت نظريته .

والتلمود يوحى لمن يقرأه بأنه كتاب الهيمنة المشمودة لدى اليهود على سائر الجنس البشري ، ولها كان هذا الامر شائنا وعسيرا ، أصبح لابد من اقناع الاميين بنظرياته وتعاليمه .. فكان ما قرره — ظنا — دارون من طريق استقراي ناقص نظرية البسها مسوح العلم ، واوهم بها العالم على انها يقينية لا ترد .

ولكن ما علاقة دارون باليهودية وما علاقته بحيوانية الانسان الاسمي التي جاءت في كتاب قديم جدا لليهود ؟

ان دارون كان على خط التلمودية الحديثة (المصهونية) من حيث يدري او من حيث لا يدري ... والوثائق تشير كما اشارت الوثائق بأن دارون كان يسير بموجب ايهاماتها .

وهذا ما قرأناه في المقررات التي اخذتها الجمعيات الصهيونية العالمية في مؤتمر — بال — عام 1897 .

وقد جاء في البروتوكول الثاني لهذه المقررات ما يلي :

« ان الطبقات المتعلمة ستختال زهوا أمام نفسها بعلمها . وستأخذ جزاها في مزاوله المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه اليها وكلاؤنا — رغبة في تربية عقولها حسب الاتجاه الذي توخيناه — .

« لا تتصوروا ان تصريحاتنا كلمات جوفاء . ولاحظوا هنا ان نجاح دارون Darwin وباركس Marx ونيتشه Nietzsche قد رتبناه من قبل . والامر غير الاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الاسمي (غير اليهودي) سيكون واضحا لنا على التأكيد « (4) .

ودارون لم يفعل شيئا سوى انه لمسلسل حيوانية الانسان التي وردت في التلمود في مواضع عديدة نجتزئ بعضها في سطور :

« جاء في تلمود اورشليم ان النطفة التي خلقت منها بقية الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان ..

« الامم الخارجة من دين اليهود ليست كلابا فقط بل حميرا أيضا . وقال الحاخام — ابار باتيل — : ان الشعب المختار هو الذي يستحق الحياة الابدية واما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير . ولا قرابة بين اليهود وبين الامم الخارجة من الدين اليهودي لانهم اشبه بالحمير ، ويبوت عبادة باقي الامم يعتبرها اليهود كزرائب الحيوانات وقال الحبر مناهم : ايها اليهود ، انكم من بني البشر لان ارواحكم مصدرها روح الله . واما باقي الامم فليست كذلك لان ارواحهم مصدرها الروح النجسة .

« وكان هذا رأي الحاخام — ابريل — ايضا لانه كان يعتبر الخارجين من الدين اليهودي خنازير نجسة تسكن الغابات . فالخارج من دين اليهود حيوان على وجه عام . سمه كلبا او حمارا او خنزيرا .. والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان .

« وقال الحاخام — ابار باتيل — المرأة غير اليهودية هي من الحيوانات وقد خلق الله الاجنبي على هيئة الانسان ليكون لائقا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من اجلهم ، لانه لا يناسب الابيسر ان يخدمه ليلا ونهارا حيوان على صورته الحيوانية كلا . لهذا مناف للذوق والانسانية .

« فاذا مات خادم يهودي او خادمة وكنا من المسيحيين فليست ملزما بان تقدم له التمازي باعتباره فقط انسانا ، بل باعتباره فقط حيوانا من الحيوانات المسخرة » (5) .

اذن لحيوانية الانسان التي نادى بها التطوريون هذا منطلقا .. ولابد للصهيونية التلمودية التي تبغي السيطرة على العالم من ان تثبت هذا في افهام الناس بطريق سحري تقبله العقول الضعيفة وجهاهيسر الناس لتنتقل بهذا المفهوم بكل حرية محطبة قبيود القيم الثابتة والاخلاق السامية والرسالات القومية .. وتميش بالتالي كالحوانات ، تاكل وتتمتع بانواع السموات والالذائذ بلا رقيب ولا حسيب . وعندما تصل هذه الحيوانات — بالتشبه — الى درجة الفوضى والضياح يسمل قيادها وتلين قناتها لارباب الصهيونية

وبعد ، فالزعم القائل بحيوانية الانسان وتطوره من الخلية الواحدة ، هو زعم فاسد ولا رصيد له من

الواقع ، وقد رده العلم والعقل معا .. وعليه فهو غير جديد بان يكون اساسا لبحث اميزة البيان في شأن الانسان ، او غيره من الابحاث العلمية الجادة الهادفة.

ونتيجة لهذا البحث العلمي يتقرر معنا الاتي .. :

- 1 — الانسان مخلوق فذ .
- 2 — حادثة وجود الانسان على الارض حادثة فذة غير مكررة .
- 3 — الانسان متميز عن الحيوان نفسيا وجسديا .
- 4 — لا تماثل بين الانسان والحيوان والتشبه العضوي او الهيكللي ليس دليلا على كون احدهما من الآخر .
- 5 — الفترة ثابتة عند الانسان منذ كانت وان تغيرت صور الدوامع ليها .
- 6 — ويمتاز بـ (التفكير التصوري)
- 7 — ولديه امكانيات اجتماعية واقتصادية وسياسية كائنة في طهرته منذ كان .

وهذا يعني ان الانسان وجد دون مقدمات ويتمتع بنفس الميزات التي لديه الآن — وان تغيرت وتطورت مظاهرها الخارجية وصورها — وميزة البيان من الميزات العديدة التي تميز الانسان عن الحيوان ... ولما كان هذا شأن الانسان امسح من الضروري ان يكون ناطقا مدركا (اي مبينا) منذ وجوده الاول لكي يعبر عن مكونات لطهرته ويبين بواسطتها عن احساساته ومدركاته : ويحقق بموجبها غاية وجوده .

فيكف نطق الانسان الاول فهذا ما سوف نحقق فيه الى جانب تثبيته ما نتج معنا في هذا الفصل . وذلك منذ استنطاق التاريخ بما فيه من روايات مختلفة . في الفصل الثاني :

النظرة التاريخية :

لو هدنا الى اعماق التاريخ لنسأل عن الانسان وكيف كان ؟ . فسوف نجد ضالطنا المنشودة .. وذلك بالرغم من تضارب الروايات واختلاف الاخبار .. الا اننا نلح من خلالها خطا مريضا ينتظم الكل . مع بعض التفرعات . كما نلح واديا مبيحا تسير في شجبه فكرة واضحة عن نشأة الانسان .

فالاخبار التي تناقلها نسابو العرب في الجزيرة العربية وغيرها تشبه الى حد كبير ما نقله المؤرخون الفرس ، وهذه بالتالي قد تختلف كثيرا وخاصة في اصولها مما حكاه اهل التوراة (في العهد القديم) .. وهذه وتلك وهاتيك تكاد تكون مماثلة لـ اخبار الاسم السابقة التي ذكرها القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية .

ولقد استطاع المؤرخون المعظم في ظل الدولة الاسلامية وفي قمة العصور الذهبية للفكر والتأليف ، امثال ابن الاثير وابن جرير الطبري وابن كثير وابن عساکر وابن خلکان وابن خلدون وغيرهم كثير ... ان يجمعوا الروايات المختلفة والاخبار المتضاربة عن تاريخ البشرية ونشأة الانسان لمحتقوا فيها تحقيقا علميا دقيقا ووضعوا بين ايدينا الراي الراجح والخط الواضح لنشأة الانسان .

وسوف نكتفي بتتبع بعض النصوص التاريخية المأخوذة من تاريخ واحد من اوثق التواريخ . من تاريخ الرسل والملوك (6) لمؤلفه ابي جعفر محمد بن جرير الطبري (224 — 310 هـ) .. هذا التاريخ الذي بنى عليه وعلى امثاله مؤرخو اليوم كثيرا من مؤلفاتهم وتواريخهم وابحاثهم التاريخية .

قال ابن جرير في معرض كلامه عن استكبار ابليس في الارض وهلاكه :

« وقد قيل : ان سبب هلاكه ، كان من اجل ان الارض كان فيها قبل آدم الجن ، فبعث الله ابليس قاضيا يقضي بينهم ، فلم يزل يقضي بينهم بالحق الف سنة حتى سمي حكما ، وسماه الله به ، وأوحى اليه اسمه ، فعند ذلك دخله الكبر ، فمعاظم وتكبر ، والقي بين الذين كان الله بعثه اليهم حكما ، البأس والعداوة والبغضاء ، فانتقلوا عند ذلك في الارض التي سنها لهما زعموا ، حتى ان خيولهم تخوف في دمائهم ، قالوا : وذلك قول الله تبارك وتعالى : (انميينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد — سورة ق 15) وقول الملائكة : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — البقرة 30) فبعث الله تعالى عند ذلك نارا فاحرقتهم . قالوا : فلما رأى ابليس ما نزل بقومه من العذاب خرج الى السماء ، فاقام عند الملائكة يعبد الله في السماء مجتهدا ، لم يعبد شيئا من خلقه مثل

مبادته ، فلم يزل مجتهدا في العبادة حتى خلق الله آدم ، فكان من أمره ومعصيته ربه ما كان » (ص 88 ج 1) وفي معرض القول عن خلق آدم عليه السلام :

« وكان مما حدث في أيام سلطانه وملكه (يعني ابليس) خلق الله — تعالى ذكره — ابائنا آدم ابائنا البشر ، وذلك لما اراد جل جلاله ان يطلع ملائكته على ما قد علم من انطواء ابليس على الكبر ولم يعلمه الملائكة ، واراد اظهار أمره لهم حين دنا أمره للربوار وملكه وسلطانه للزوال ، فقال — عز ذكره — لما اراد ذلك للملائكة : (اني جاعل في الارض خليفة) فاجابوه بان قالوا له : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — البقرة 30) فروى عن ابن عباس ان الملائكة قالت ذلك كذلك للذين قد كانوا عهدوا من امر الجن كانوا سكان الارض قبل ذلك ، فقالوا لمريم جل ثناؤه لما قال لهم : (اني جاعل في الارض خليفة) اتجعل فيها من يكون فيها مثل الجن الذين كانوا فيها ، فكانوا يسفكون الدماء ويفسدون فيها ويمصونك ، ونحن نسيح بحمدك ونقدس لك ، فقال الرب — تعالى ذكره — لهم : (اني اعلم ما لا تعلمون) يقول : اعلم ما لا تعلمون من انطواء ابليس على التكبر ، وهزمه على خلافه امري ، وتسويل نفسه له الباطل واغتراره وانا مبد لكم منه لتروا ذلك منه هيانا ..

« فلما اراد الله عز وجل ان يخلق آدم عليه السلام امر بقرينه ان تؤخذ من الارض .. كما حدثنا ابو كريب قال حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمار ، عن ابي زوق ، عن الضحاک ، عن ابن عباس ، قال : ثم أمر — يعني الرب تبارك وتعالى — بقرينة آدم فمرمت ، فخلق الله آدم من طين لازب — واللازب اللزج الطيب — من حما مسنون ، منقن ، قال : وانما كان حما مسنونا بعد التراب ، قال : فخلق منه آدم بيده » — ص 89 — 90 ج 1 —

« حدثنا ابن حميد قال : حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن ابي المغيرة عن سعيد ابن جبیر ، عن ابن عباس ، قال : بعث رب العزة — عز وجل — ابليس ، فآخذ من اديم الارض ، من عذبا وملعها ، فخلق منه آدم ، ومن ثم سمي آدم ، لانه خلق من اديم الارض ، ومن ثم قال ابليس : (اسجد لمن خلقت طينا — الاسراء 61) اي هذه الطينة انا جئت بها . » — ص 90 / 91 ج 1 —

« ونكر ان الله تعالى ذكره لما خبر طينة آدم تركها اربعين ليلة ، وقيل اربعين عاما جسدا ملقى »
— ص 92 ج 1 —

« فلما نفخ فيه الروح اتته الروح من قبل راسه .
فيما ذكر من السلف قبلنا انهم قالوه .. » — ص 94 ج 1 .

« ثم علم الله — عز وجل — آدم الاسماء كلها .
واختلف السلف من اهل العلم قبلنا في الاسماء التي علمها آدم : اخاصا من الاسماء علم . ام عاما ؟ فقال بعضهم : علم اسم كل شيء .. » ص 96 ج 1 .

« حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا ابي ، عن سليمان من خصيف ، عن مجاهد : (وعلم آدم الاسماء كلها) قال : علمه اسم كل شيء .. » ص 93 ج 1 .

« حدثنا بشر بن معاذ ، حدثنا يزيد بن زريع . عن سعيد ، عن قتادة : قوله عز وجل : (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العزيز الحكيم) قال : يا آدم انبئهم باسمائهم » : فانبا كل صنف من الخلق باسمه ، والجاه الى جنسه . (98)

« وقد قيل : ان الله جل جلاله قال ذلك للملائكة لانه جل جلاله لما ابتدا في خلق آدم قالوا فيما بينهم : ليخلق ربنا ما شاء ان يخلق ، فلن يخلق خلقا الا كنا اعلم منه ، واكرم عليه منه ، فلما خلق آدم علمه السلام وعلمه اسماء كل شيء عرض الاشياء للنبي علم آدم اسماءها عليهم ، فقال لهم : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين في قبلكم : ان الله لم يخلق خلقا الا كنتم اعلم منه ، واكرم عليه منه » (ص 100 ج 1)

هذه النصوص عينة بسيطة من النصوص التاريخية التي تكاد تتفق جميعها على خط واحد ، هو ان الله — جل ذكره — تلك القوة العظمى الفاعلة في هذا المكون فيما ندرك وفيما لا ندرك ، والتي لا يعمل شيء البتة بدونها ، كما لا تعمل نتيجة ما بدون مقدمات ، ولا معلول بدون حلة ، ولا بناء بدون بناء ، ولا مخلوق يتصف بالبداية والنهاية بدون خالق يتصف بالقدم والازلية .. اقول هو ان الله — جل ذكره — اراد ان يخلق .. فخلق .. فكان آدم ابو البشر باحسن

الصور وافضل الصفات العقلية والجسدية التي تخوله القيام بمهام الخلافة في الارض وعمارتها ، لذلك كان — منذ كان — بشرا سويا مدركا مفكرا ناطقا له عينان ينظر بهما وله اذان يسمع بهما وله انف يشم به وله لسان ينطق به وله يدان يبطش بهما ورجلان يمشي عليهما لاكتساب معيشته وتحقيق غاية وجوده .

ولكن هذه النصوص قد اعتمدت على النقل — غالبا — ولم تعالج الفكرة من وجهة عقلية . فبطل عندنا من نص تاريخي يتكلم في عقلانية هذا الموضوع ؟؟ لنترجع اذن . الى العالم الفذ والمؤرخ الفيلسوف . واضع علم الاجتماع ، واستاذ من كتب فيه من بعده . الى الباحث المسلم ابن خلدون .. حيث يؤمن بما آمن به غيره من المؤرخين بان الله هو الذي خلق آدم وان آدم خلق كاملا ، واودعت فيه فطرة معينة تميزه عن غيره من المخلوقات كما له صفات نفسانية لا يتمتع بها اي حيوان آخر ويتجلى ذلك بالتفكير والتصور الذين يتمتع بهما الانسان .. كما تجعله هذه الفطرة اجتماعيا يالك الآخرين لينظم مجتمعه ويبيته على ضوء هديها.

قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه : (7) .

« الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات » (الاولى) في ان الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : الانسان مدني بالطبع ، اي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم . وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الانسان : وركبه على صورة لا يصح حياتها ويقاؤها الا بالفداء . وهده الى التماس بطورته وبما ركبها فيه من القدرة على تحصيله ، الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الفداء غير مولية له بمساعدة حياته منه ، ولو فرضنا منه اقل ما يمكن لرغبه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وماخوري . هب انه يأكله حبا من غير علاج فهو ايضا يحتاج في تحصيله حبا الى اعمال اخرى اكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحبوب من غلاف السنبل . ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة ومصانع كثيرة اكثر من الاولى ويستحيل ان تؤمى بذلك كله او بعضها قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنسه

العدوان منهم لانها موجودة لجميعهم ملابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم من بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بمعدوان وهذا هو معنى الملك ، وقد تبين لك بهذا انه خاصة للانسان طبيعة ولا بد لهم منها ، وقد يوجد في بعض الحيوانات المعجم — على ما ذكره الحكماء — كما في النحل والجراد ، لما استقرى فيها من الحكم والانتقاد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنها في خلقه وجناته ، الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية ، لا بمقتضى الفكرة والسياسة ، اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي ، وانها خاصة بطبيعة الانسان فيقررون هذا البرهان الى غايته ، وانه لا بد للبشر من الحكم الوازع ، ثم يقولون بعد ذلك ، وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله ياتي به واحد من البشر ، وانه لا بد ان يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليتبع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف ، وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تسراه ، ان الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالمعصية التي يقتدر بها على تهزم وحملهم على جادته ، فاهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب ، فانهم اكثر اهل العالم ، ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والاثار فضلا عن الحياة ، وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاتاليمة المنحرفة في الشمال والجنوب (ولكن هذه الدول وهذه الحياة) بخلاف حياة البشر (لهمي في) موسى (و) دون وازع لهم البتة (ووجود الوازع لهم) فانه يمتنع . وبهذا يتبين لك قاطعاً في (انكار) وجوب النبوات وانه (رايهم) ليس بعقلي . وانما (وجوب النبوات) مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق والهداية (8) .

النظرة الواقعية :

البرهان الرياضي يعتمد على مسلمات .

والبرهان الطبيعى يعتمد على موجودات (الظواهر الحسية) .

ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف ، وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا في الدفاع من نفسه الى الاستمانة ببناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات المعجم من القدرة اكمل من حظ الانسان مقدرة الفرس مثلا اعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والليل اضعاف من قدرته . ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدايمته ما يصل اليه من عادية غيره . وجعل للانسان موصا من ذلك كله الفكر واليد ، مألذ مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرياح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف الناثبة من المخالب الجارحة والثراس الناثبة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الامضاء . فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات المعجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدايمتها وحده بالجملة ، ولا تفى قدرته ايضا باستعمال الآلات المعدة للمدايم لكثرتها وكثرة الصنائع والمواضع المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه ببناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ، ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته ولا يحصل له ايضا دفاع من نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويماجله الهلاك من مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوة للغذاء والسلاح للمدايم ، وتبت حكمة الله في بقاءه وحفظ نومه فاذن الاجتماع ضروري للنوع الانساني والا لم يكمل وجودهم وما اراده الله من اعمار العالم بهم واستغلافه اياهم ، وهذا هو معنى الممران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم ، وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في نفسه الذي هو موضوع له . وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم . فليس ايضا من المنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضل . ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم ممران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم من بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلت دمه لعدوان الحيوان المعجم منهم كافية في دفع

والبرهان التاريخي يعتمد على نظريات
الفرضية الخفية (...)

وغالب هذه الاسس استواها ما تبني عليها
العلوم صرحها (...) تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال
بين الظن واليقين ... بين الحتمية والاحتمال . وبين
الواجب والامكان .

فالبرهان الهندسي الذي يقوم على اساس
مسلطات اقليدس هو غير البرهان الذي يقوم على
اساس مسلطات لويبتشسكي ، الذي اعتبر المكان على
شكل السطح الداخلي للاسطوانة (تقول فرضيته :
من نقطة خارجة من مستقيم يمكن رسم خطوط لا
حصر لها موازية لهذا المستقيم . ونتيجة لهذه المسئلة
اصبح مجموع زوايا المثلث اقل من قائمتين . ويمكن
ان تصور ان الخطين المتوازيين قد لا يلتقيان ابدا على
خلاف ما قاله اقليدس (كما ان هذا وذاك غير البرهان
الهندسي الذي يقوم على اساس مسلطات المالمس
الالمانى ريمان . الذي فرض المكان كرويا (تقول
فرضيته : من نقطة خارجة من مستقيم لا يمكن رسم
خط واحد مواز لهذا المستقيم ، وفي مثل هذا المكان
يمكن ان تصور كل الخطوط متقاطعة لانها تكون شبيهة
بخطوط الطول على الكرة الارضية ، تتلاقى وتتقاطع
عند القطبين . ونتيجة لهذه المسئلة يصبح مجموع
زوايا المثلث اكثر من قائمتين (...) ونحصل بالنتيجة على
هذا التقرير المتناقض منطقيا الصحيح عليها : (مجموع
زوايا المثلث تساوي قائمتين - اقليدس - مجموع
زوايا المثلث اكثر من قائمتين - ريمان - مجموع
زوايا المثلث اقل من قائمتين - لويبتشسكي -) .

كما ان البرهنة على مبدأ التقييد والحتمية في
الطبيعة (هذا المبدأ هو الايمان بوجود نظام ثابت عام
تخضع له جميع الظواهر في الطبيعة) لم تسلم من
كونها قائمة على اساس الطريقة الاستقرائية (وهي
تميم الحكم العاشر على بعض افراد الفئة على جميع
الافراد في الفئة ... اي الانتقال من المعلوم الى المجهول .
وهذا يناقض قواعد المنطق القائلة : - صدق الحكم
الجزئي ليس دليلا على صدق الحكم الكلي -) ولكن
الذي دهم هذه البرهنة هو العقل الذي لا يقبل بان
تسود الطبيعة الفوضى ، دهمها بالرغم من الوقائع
المادية ، ايضا ، التي تثبت انفلات عالم الذرة من مبدأ
التقييد والحتمية ، وعدم امكانية تحديد وضع الكهارب
وسرعتها في الوقت الحاضر . (يقال ان تقييد الذرة

جزئي .. بحيث لم يمكن دراستها من كتب لمي كالقطة
في الغرمة المظلمة . فلا يستطيع الدارس تحديده
موضعها الا باستعمال النور واشعاع النور يتبعه خوف
القطة وبالتالي تحركها عن موضعها ...) .

وكذلك اختلاف النظريات حول تاريخ الارض
ونشأتها بين العلماء من ملكيين وجيولوجيين لكل واحد
منهم نظرية غير نظرية قريته . وكل نظرية من هذه
النظريات هي مدرسة قائمة بذاتها . وقد برهن عليها
قائلها برهانا لا يحتمل الشك واورد عليها ادلة وشواهد
لا تجاوز العقل .. واذا اقتنع هذا العقل بالبرهان على
النظرية الواحدة تعرض عليه . لسوف يشك اذا
استعرضها جميعا على هذا الشكل غير المنطقي .. مثلا :

- 1 - اصل الارض كتلة ملتهبة انفصلت عن الشمس ..
- 2 - اصل الارض كتلة من كوكب ضخم انفجر في
الفضاء ..
- 3 - اصل الارض تجمع غازات في الفضاء تجذبت
فيها بعد .. وهكذا ..

اذن يستطيع ان اعرف البرهان بانه معلومة
سحرية ، الغاية منها ارضاء الغرور البشري .. بحيث
ان الانسان والعقل الواعي ييه بالذات لا يستطيع
ان يدرك دنيا بلا حدود . ولا شيئا بلا بداية ونهاية .
ولا ان يدرك امرا غير ملموس بهواسه ياتي البرهان
العلمي لكي يشبع هذا الغرور المتجدد في كل لحظة
نضع فيها قدمنا على باب جديد من ابواب الغيب والسر
والكتان . التي تحيط بعالمنا العام والخاص من كل
جانب . ملتجئين بجوانب البرهان الراحة .. ولكنهما
راحة مؤقتة بحيث ما يشبه البرهان اليوم قد ينقده في
الغد .

بالرغم مما تقدم ، كان لابد لي من ان اسير هذا
المسار . فلتأخذ لبحثي اميزة البيان في نشأة الانسان .
مسلطات معينة مع اساس فكري معين ، انطلق مننه
واقيم البراهين على ضوئه . بحيث ان لكل نظرية
اسسا فكريا (ايديولوجية) معينة تقوم عليها .

وسوف لا يضير بحثي ان اسير به في ركاب
علمائنا العظام الذين اناروا للبشرية طريقها في
العفارة ، ووضعوها لها الاسس الثابتة لخطى
العلوم . على الغالب - وهؤلاء المباقرة امثال : ابن

سينا . في الطب — وابن الهيثم في البصريات والضوء —
والرازي وجابر الكوفي : في الكيمياء — وابن فرناس
في الفلك والطيران — والفارابي في النفس والجبر
والإعداد — وابن رشد ، والفزالي . في الفلسفة
والإشراق وما وراء الطبيعة .. وكثير غيرهم .. قد بنوا
نظرياتهم العلمية على أساس النظرة الإسلامية العامة
وانطلقوا منها ولم يتجاوزوا حدودها .

ولم يكن نهج هذا قائما على أساس التقليد
الاعمى . بل هو اعتقاد عقلي وتمحيص علمي للأسباب
التالية :

(1) لا نستطيع ان نتصور هذا الانسان الدقيق
بأجهزته .. المعقد بتركيبه .. الهادف بفطرته .. الذي
يتألف من مجموعة فعاليات روحية ومادية .. دون
منهج يفسر خطاه على الأرض دفعا للحيرة . ويحدد
له معاني النور والإشراق في عالمه الخاص والعالم
دفعا للفساد في ظلمات النفس وعتمتها .

.. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا — الآية
48 المائدة .

فكان الدين هدية من الخالق الى المخلوق .
وهداية له على درب التمر والاجبار .

(قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .
الآية 50 طه .)

(2) وهذا الانسان بما يملك من الاحاسيس والمشاعر
الراقية . وبما ركب فيه من الدوافع الفطرية
المتباينة .. مثل : دافعي : الحب والبغض — دافعي
الخوف والغضب — دافعي التملك والجوع .. الخ .
لا يمكن ان يسير هذا المركب المعجب بدون ناموس
عام ثابت يعتد به . ومنهج قوي لا ينحرف ولا
يتراجع يفسر له العلاقات بين هذه الدوافع
المتناقضة من جهة وبين المشاعر والاحاسيس من
جهة اخرى ..

ا ونفس وما سواها . فإلهما فجورها وتقاها .
قد أفلح من زكاه . وقد خاب من دساها .. ا سورة
الشمس .

منهج فيه معنى السمو والكمال ، يسمح للبراهين
العلمية ان تحوم حوله فتصفيه نارة وتخلطه اخرى
حتى تصل الى الحقيقة .

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى
يتبين لهم انه الحق — فصلت 53) .

(3) والاسلام الذي هو خاتم الديانات السماوية .
واكملها تشريعا . واثبتها رواية ونقلها واقربها من
انسان اليوم نزولا من السماء .. هذا الاسلام قد
برهن على صحته وأثبت صدقه وتفوقه وموضوعيته
على طول التجربة التي عاشها خلال أربعة عشر
قرنا . واذا كان هناك من يماري ، ويجادل في مير
حق . ويسلك سبيل السفسطائيين في الجدول
المقيم . فسوف لا يجد مناصا من الأذهان أو السكوت
على جهود امام النصوص الإسلامية التي كشفت
الستر عن المستقبل فتكلمت عنه بايجاز احيانا
وباسهاب احيانا اخرى ، وكذلك النصوص التي
جاءت تستشهد بالظواهر الكونية كدليل على عظمة
الله : لم تتجاوز هذه النصوص الحقائق العلمية
المثبتة حتى عصرنا هذا ، والامثلة على ذلك وفيرة
ويجدها كل من استقرأ النصوص القرآنية والاحاديث
النبوية الصحيحة وكان على جانب من الاطلاع
والمعرفة وبعد النظر والانصاف .. وسأثبت بعضها
هنا للاعجاز ..

ا — في الاشارات الفلكية والحقائق الكونية :

(1) الأرض تدور .. قال تعالى : (وترى الجبال
تحسبها جادة وهي ترم من السحاب صنع الله
الذي اتقن كل شيء .. — النمل —)

(2) والكواكب والنجوم كلها تدور .. ا والشمس
تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر
قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا
الشمس ينغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق
النهار : وكل في فلك يسبحون . — يس — ا .
والنوين في (كل) موضعا عن الاضافة التي هي
بمعنى كل ما في الفضاء .. وكلية يسبحون تدل على
مادة العوالم الاصلية (الاثير) التي يسبح بها كل
شيء .

(3) العوالم منظومات من الكواكب المتجاذبة ..
ا والسماء ذات العبك — ومالها من مروج — وفي
مطلع سورة الملك : .. الذي خلق سبع سموات
طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع
البصر هل ترى من فطور) .

14 المطر من الأرض وإلى الأرض .. () والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها .. ()

15 والمطر يهطل من السحاب المتراكم .. () الم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله — النور 43 — () الودق : المطر .

16 والرياح هي التي تسوق الغيوم .. () الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا . فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده . إذا هم يستبشرون — الروم 49 — ()

17 والأرض بعدما تشكلت طبقاتها نهضت فيها سلاسل متعددة من الجبال لكي تتماك تلك الطبقات فلا تنزلق وبالتالي لتتوازن الأرض وتستقر الحياة عليها ..

() والجبال أوتادا — والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون — الحجر — والقي في الأرض رواسي أن تهيد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون — النحل — () وفي الآيات الآتية يلاحظ الانسجام بين مفهومنا وبين مفهوم أحدث النظريات الجيولوجية حول بعض المراحل التكوينية التي مرت بها الأرض .. () والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولانعامكم — النازعات — ()

18 الطيران في الأجواء العالية يؤثر على جهاز التنفس وجهاز دوران الدم ، فيرفع الضغط ويعيق التنفس ، ويصعب ذلك أمراض نفسية وجسدية أخرى .. ولتنظر إلى هذه السورة البليغة المعبرة عن الواقع () ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء .. — الأنعام 125 — ()

19 النفاذ من الجاذبية الأرضية إلى الفضاء ، ثم من الفضاء القريب إلى فضاء آخر هذا ممكن ولكن بشرط () يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان .. — الرهبان — ()

10 الخطوط المرسومة على البصمات تختلف من إنسان إلى آخر ، وقد لا تتفق بصمات لانسنتين في العالم ، ولما اكتشفت هذه الخاصة استعملت كعلامة مميزة يخصص بها الإنسان على تقريراته وتوقعاته . والقرآن الكريم قد أشار إلى هذه الخاصية في معرض القدرة والاعجاز فقال : () .. أحسب الإنسان أن نجعل مظاهره ، بلى ، قادرين على أن نسوي بنانه .. — القيامة — ()

ب — أخبار الله تعالى بانتصار الروم على فارس قبل تسع سنوات من الحادث :

الم . غلبت الروم في أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيفليون في بضع سنين . — روى ابن جرير — بإسناده — عن عبد الله بن مسعود — قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم . فلما نزلت : () الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون ، في بضع سنين . — قالوا — () أي المشركون) : يا أبا بكر إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق . قالوا — هل لك أن نقامرك (أي نراهك) — وجاء في خبر آخر أن ذلك كان قبل تحريم الرهان بوصفه من الميسر ، فيأيموه على أربع قلائص إلى سبع سنين . لمضت السبع ولم يكن شيء . فخرج المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : () ما بضع سنين عندكم) : قالوا : دون العشر . قال () اذهب فزادهم وأزد سنين في الأجل) . قال فما مضت الستين ، حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك () ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) — الظلال ج 21 ص 25 .

ج — أخبار الرسول الكريم عن العواطف التي ستكون بعد وفاته :

1) بشر محمد صلى الله عليه وسلم بأن كنوز كسرى وقبصر ستنلق في سبيل الله .. () من أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد مات كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا ملك قبصر فلا قبصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفق كنوزهما في سبيل الله . » — صحيح مسلم — كتاب الفتن — ج 8 ص 186 — .

وفي هذا إشارة الى السيادة التي استحققتها
رأية الله على ملك كسرى وتيصر .

2) لقد مرت فترة على المسلمين بعد استشهاد عمر
رضي الله عنه مليئة بالفتن .. وقد أخبر عنها الرسول

1) عن اسامة : ان النبي صلى الله عليه وسلم ،
اشرف على اطم من اطم المدينة ثم قال : « هل
ترون ما ارى ؟ .. اني لارى مواقع الفتن خلسال
بيوتكم كمواقع القطر » . - المرجع السابق 167 -

3) السبئية فئة ضالة اظهرت الاسلام وابظنت الكفر
ترجع نسبها الى عبد الله بن سبا اليهودي .
لقد عملت هذه الفئة بالبغى بين المسلمين ففرقت
صوفهم واوقعت الحروب بينهم وكانت سببا في قتل
الكثير من الصحابة الكرام ، وقد أخبر الرسول من
قتل بعضهم :

1) عن ام سلمة ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » - المرجع
السابق -

4) عثمان بن عفان رضي الله عنه من المبشرين بالجنة
وباستشهاد . فقد ورد ان الرسول كان مع ابي بكر
وعمر وعثمان على جبل احد . فاهتز الجبل
فقال الرسول مخاطبا الجبل « اثبت احد ان عليك
الا نبي وصديق وشهيدان » . ومن
الحديث الطويل المشهور الذي اخرجه البخاري
ان ابا موسى الاشعري استاذن لعثمان على
رسول الله ، فقال الرسول : « انذن له وبشره
بالجنة معها بلاء يصيبه » . - البخاري ج 9 ص 69 .

5) الحسن بن علي سبط رسول الله هو الذي اجهد
على الفتنة وتبرها ومهد طريق الصلح بين المسلمين
ولقد تنبأ الرسول بذلك والحسن ما زال صغيرا .
قال ابو بكر : بينا النبي يخطب جاء الحسن فقال
النبي صلى الله عليه وسلم : « ان ابني هذا سيد
ولعل الله ان يصلح به بين فئتين من المسلمين .
- المرجع السابق - .

6) لقد سادت شرمة الاسلام قرونا طويلة كانت
خلالها تقارح - كدولة - بين القوة والضعف ،
وذلك بحسب الاناس الذين يمثلونها ، ويعتبر الغاء
الخلافة الذي اعقبت اعلان الدستور في تركيا في عام

1908 على يد مصطفى اتاتورك والاتحاديين الاتراك
آخر خربة توجه الى الدولة الاسلامية ، حيث لم
يقم لها قائم بعدها .. اللهم الا ما قام بحدود ضيقة
جدا وفي اطراف متباعدة خلال السنين القليلة التي
نعيشها ... ولكن الغالب على الممالك الاسلامية
هو ما انتشر من دعاوي الالحاد والمادية والوطنية
والقومية منذ الغاء الخلافة وحتى عصرنا هذا .
وفي الحديث الاتي تحليل رمزي مسبق ومقتضب
لهذه الفترة من التاريخ :

1) قال حذيفة بن اليمان : كان الناس يسألون
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت
اسأله عن الشر مخافة ان يدركني ، فقلت : يا
رسول الله انا كنا في جاهلية وشر فاجأنا الله بهذا
الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم .
قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم
وفيهِ دخن . قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بخير
هدى تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير
من شر ؟ .. قال : نعم دماء على ابواب جهنم من
اجابهم اليها فذفوه فيها . قلت يا رسول الله صلهم
لنا ، قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا ، قلت
لما تأمرني ان امركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة
المسلمين وامامهم قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا
امام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو ان
تعمض بامل شجرة ، حتى يدركك الموت وانت على
ذلك - البخاري - ج 9 ص 65 - .

د - اخبار الرسول الكريم عن الهوادث التي تسبق
قيام الساعة :

1) عندما نكت اليهود يهودهم مع رسول الله في
المدينة قاتلهم وشتمهم في البلاد ، ولم يكن لهم بعدها
دولة . ولكنه أخبر عن تجمع سيكون لهم ، وقاتل
سيتم بين المسلمين وبينهم ، فهناك عدة روايات في
المصاح وغيرها ، كل رواية لها ميزة وتنفرد
باشارة ، ولكنها تجتمع كلها على ما ذكرت ، فمن
هذه الروايات :

1) عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « تقاظمكم اليهود فتسلطون
عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي
ورائي لما قتله » . - صحيح مسلم ج 8 ص

188 - في هذا الحديث إشارة الى انهم هم المعتدون بالاضامة الى تجمعهم حيث لا يقاتل قوم الا ولهم دولة (وقد حدث) .

ب) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقطله الا الغرقد فانه من شجر اليهود . - المرجع السابق - اذا كان شجر الغرقد لا يزرع الا في فلسطين - كما قال لي قائل - ففي الحديث إشارة الى مكان تجمعهم ، ولعل هذا الشجر قد نسب اليهم لانهم اكثر الناس زراعة له في زمن معين ومكان معين .. ولقد شاهدت هذا الشجر على جبال الخليل فهو شجر قصير القامة كثيف الاغصان والاوراق ، اغصانه على تناس مع الأرض مما يجعل له جيوبا تتسع للاختباء . ويحمل ثمرا صغيرا بقياس حبة الفول اليابسة . وهو قريب بالطعم من الخرنوب .

ج) ومن أعجب الأحاديث التي سمعتها - ولا أعلم مدى صحتها - هذا الحديث الذي يحدد مكان القتال بين اليهود والمسلمين :

« لتقاتل اليهود على نهر يقال له الأردن انتم على شرفيه وهم على غريبه » .

واما الحديث عن الفئتين العظيمتين اللتين ستقتلان ويكون بينهما مقتلة عظيمة .. ومن كثرة الزلازل والشرط وتقارب الزمان .. فالحديث منها طويل وإيراد الشواهد عليها وتحليلها ضرب من المحال في هذا البحث بالذات . وانما اثبت هنا حديثا نبويا ، عجبا ، يمدنا باليقين الذي لا تشوبه شائبة من صدق الاسلام وكون رسوله لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .. هذا الحديث الذي وقعت أكثر مقراته ولمسنا وقوعها بأيدينا وشاهدناه بأم أعيننا قد قرأته في كتاب (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار - لسيد الشيخ محيي الدين بن عربي) وهو من المطبوعات الإثنية بالخط العجري في مكتبة استاذي الشيخ محمد أبي الفرج الخطيب .. هذا نصه :

أروينا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الحجة ان النبي صلى الله عليه وسلم اخذ بحلقة باب الكعبة ثم اقبل بوجهه على الناس فقال يا معشر المسلمين ان من اشراط القيامة امانة الصلاة واتباع الشهوات وتكون امراء خونة ووزراء مسقة فوثب سلمان الفارسي رضي الله عنه فقال ، يا بني انتت وامي يا رسول الله ان هذا ليكون . قال نعم يا سلمان ، وعندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا قال : ويكون ذلك . قال نعم يا سلمان ، وعندها يذوب قلب المؤمن في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى ولا يستطيع ان يغيره . قال او يكون ذلك ؟ قال نعم يا سلمان . ويؤمن الخائن ويخون الامين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ، قال او يكون ذلك قال : نعم يا سلمان ان اولى الناس قوم المؤمن بينهم يمشي بالخيانة ان تكلم اكلوه وان سككت مات بغيظه . يا سلمان ما قدست امة لانتم من قوبها لضيفها ، قال : ان يكون ذلك ؟ قال نعم يا سلمان . عندها يكون المطر قيطا والولد غيطا وتلبس اللثام غيضا وتغيب الكرام غيظا ، قال ويكون ذلك ؟ قال : نعم يا سلمان عندها يعظم رب المال ويباع الدين بالدنيا وتلمس الدنيا بعمل الآخرة واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وتركب ذوات الفروج السروج لمعلمهم من امي لعنة الله ، يا سلمان عندها يلي امي قوم جنتهم جنة الناس وقلوبهم قلوب الشياطين ان تكلموا قتلوه وان سككوا استباحوهم لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا لساء ما يزرعون ونوطا حرمتهم ويحار في حكمهم عند ذلك تكون امانة النساء ومشاورة الآماء ونفوذ الصبيان على الناس وتكثر الشرط وتتعلى ذكور امي بالذهب ويتهاون بالزنا وتظهر الفتيات ويتفنن بكتب الله وتكلم الروبيضة ، قلت يا بني انت يا رسول الله وامي ، وما الروبيضة ؟ قال : يتكلم في امر العامة من لم يتكلم قبل ، قال او يكون ذلك يا رسول الله . قال نعم يا سلمان ، عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكتائب والببيع وتعلى المصاحف بالذهب وتطول المنابر وتكثر الصفوف والقلوب متباغضة والالسن مختلفة ونوالهم لمعة من اعطى على لسان من اعطى شكر ومن منع كفر قال او يكون ذلك قال نعم يا سلمان . عند ذلك ياتي سبانيا من المشرق والمغرب تكون من امي لويل للفسقاء منهم وويل لهم من الله ان تكلموا قتلوا وان سككوا قتلوا موت على طاعة الله خير من حياة على معصية الله ، قال ويكون ذلك ، قال نعم يا سلمان . عندها تشارك المرأة زوجها

ام أبى . وذلك ما اثبتته ايضا . اصحاب النظريات العلمية في السابق وفي الحاضر كأمثال العالم جيمس جينز - في الفلك - والعالم الدكتور اليكسس كاريل - في علم الحياة - والعالم انشتاين - في الذرة والفضاء - .. الخ وبهذا يتحقق قول الله تعالى :
 « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

وهذا يتبعه بالمقل كون الانسان لم يترك سدى . ولا بد له من مرشد ودليل في خضم هذه الحياة الزاخرة بالمناقضات قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .. - طه - .

ولا بد هناك من خط عام وعميق في نفس الوقت لكي يسير عليه خليفة الله في ارضه .. فكان الكتاب (او قل القرآن .. وهو لغة الضم والجع) الذي خطه القلم على اللوح المحفوظ من عالم الازل والذي عليه الروح الامين رسول الله الى الانبياء والمرسلين (جبريل عليه السلام) مكان ينزل باحكامه على الانبياء والرسل بحسب ما تحتاجه الامم والقبائل التي ينتشرون اليها .

وفي خاتمة المطاف ضم القرآن وجميع كل هذا نسمي قرآنا . وثبت به كلمة الله ومنهاج الله القويم لهذا الانسان .. نجاه الخطاب للبشرية : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) والدليل على هذا من كتاب الله جل وعلا . ايضا :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان »

هذه الآيات الرائعة ذات الوزن الموسيقي البديع تحمل اعماق المعاني : وادق التعبير .

انها مطلع الاعلان العام - سورة الرحمن - الموجه الى العالمين الانسي والجنى . ومفتاح الخطاب في ساحة الوجود .

هذا الاعلان يذكر بالآلاء والنعم .. ويستجلب القلوب الى العراطة المستقيم .. ثم يهدد وينوعد الذين يميلون عنه بالاخذ الشديد والعذاب الاليم . وهو بين كل لفظة واخرى يسأل على صيغة الاستفهام التقريرية : فباي آلاء ربكما تكذبان (مكررا ذلك احدى وثلاثين مرة .. ويرد الثقلان بالقول : (ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ملك الحمد) (9) .

في امره ويحق الرجل والده ويبر صدقه يلبسون جلود الضان على قلوب الذئاب ملأهم شر من الجيفة قال او يكون ذلك يا رسول الله قال نعم يا سلمان . عندها تكون مبادتهم فيها فيما بينهم التلاوة لها فيما ولا بد يسمون في ملكوت السموات والارض الانجاس الارجاس ، قال ويكون ذلك قال نعم يا سلمان . عند ذلك يتخذ كتاب الله مزامير وينبذ كتاب الله وراء ظهورهم يعطلون الحدود ويبيتون سنتي ويحبسون البدعة ولا يقام يومئذ بنصر الله لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر عندها يغار على الغلام كما يغار على الجارية ويخطب كما تخطب النساء وبهيه كما تهيه المرأة . عندها تقارب الاسواق قلت بابي انت وامى يا رسول الله وما تقارب الاسواق ، قال يقول لا ابيع ولا اشترى ولا رازق غير الله . يا سلمان عندها تلبسهم الجبابرة ويمنمون حقوقهم ويملاون قلوبهم رهبا . فلا ترى الا خائفا مرعوبا عند ذلك يرفع الحج للأحج . يحج كبار الناس للهوى واوساط الناس للتجارة ومقراء الناس للرياء والسبعة ، قال او يكون ذلك قال نعم يا سلمان . الحديث ، وسيأتي معناه في هذا الكتاب مستوفى من حديث الكنانى وقد انتهى المجلس من محاضرة الأبرار .. - ص 39 - 40 الجزء الاول - .

وبعد ، فلا سبيل الى نكران الاسلام . والمواربة من سبيله المستقيم .. وخاصة بعد ان ثبتت صحته . وثبتن للقاصي والداني صدق نصوصه ومروياته .

لهذا كله جعلت الاسلام اساسا فكريا لبحث (ميزة البيان في شأن الانسان) والله ولي التوفيق .

الانسان والبيان :

إذا آمنا ان الانسان مركب شديد التعقيد تسير كل خلية من خلاياه بنظام عجيب : وإذا علمنا ان عالم الفلك يمج بالكواكب والنجوم : وأنه يسير ايضا بنظام عجيب دقيق : وإذا قارنا بين هذا الانسان المذهل التركيب ، وبين ذلك الكون بنظامه الدقيق . وحجمه الواسع الشاسع ، لوجدنا ان الانسان مثاله كما قال حافظ ابراهيم :

« وما انا الا ذرة قد حوتها ذرة في مضاء ربي تدور »

اذن فالانسان لا يمكن ان يقوم بذاته ولا بد من يد خفية وقوة لا يراها ولا يدركها قد أوجدته تمهرا وسوف تخرجه من هذه الحياة تمهرا وهي تتحكم بمصيره شاء

ولم ينس هذا الاعلان ان يذكر الانسان والجنان باصل النشأة وخاتمة المطالب (كل من عليها لمن) والذي يوجهنا اليه البحث من الفيض الطاهر العزيز لهذا الاعلان هو اصل النشأة وميزة البيان لنعود الى:

(الرحمن) .. اسم من اسماء الله الحسنى يلمد الرحمة العظمى التي اشتقت منها كل رحمة والتي تعود الى فضلها كل نعمة ويضاف الى فضلها كل منة كانت وستكون فاسم الرحمن اذن خليق بهذه البداة، جدير بهذا المطلع في هذا الاعلان العام ..

(علم القرآن) .. هذه الآية جملة لعملية جاءت بصيغة الماضي . الفاعل فيها الرحمن جل وملا ، والفعل الماضي (علم) يحتاج الى مفعولين فكان الاول (القرآن) والثاني محذوف قدره كل مفسر بما الهه الله والاغلب هو جبريل عليه السلام الذي كان ينزل بالوحي على الانبياء والرسل .

ومجيء هذه الآية (علم القرآن) قبل (خلق الانسان) في هذا الوجود وتسلكه طريق الايمان اما له دلالة على كون هذا العلم قد سبق خلق الانسان بالفعل .

والقرآن تلك النعمة العظيمة التي تعدد طريق الانسان في هذا الوجود وتسلكه طريق الايمان والسكينة والنجاة : فلا يكون ضائعا في متاهات الكون والنفس ولا شريدا من حضرة الروح .

لذلك كان القول وتعليمه جبريل قبل خلق الانسان .. (فلا اتسم ببواطن النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا ينسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) الواقعة 75 - 80 .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كتب الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة - قال - وعرضه على الماء) . - الجزء 7 - باب القدر - .

ومن وصايا عبادة بن الصامت لابنه وهو على فراش الموت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان اول ما خلق الله القلم ، فقال له

اكتب ، فقال رب وماذا اكتب ، قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ..) ذكر الحديث بأكمله ابو داود في سننه (10) .

(خلق الانسان) .. بصريح العبارة (خلق الانسان) لكي لا يضيع هذا الانسان في بحر التساؤلات والتكهنات .. خلق الله الانسان بكل ما فيه من اجهزة وخلايا ويكل ما معه من مواهب وصفات وميزات خلقه .. واوحى اليه بصريح العبارة ايضا مبينا لماذا سويا .. واوحى اليه بصريح العبارة ايضا مبينا لماذا خلقه .. (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ..) ويتعلق بالعبادة مفهوم المعرفة معرفة الله جل وعلا.

وكيف خلقه : (الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع املا تتذكرون . يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يخرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والانفذة قليلا ما تشكرون - السجدة - وسياتي معنى توضيح ذلك في قصة البشرية الاولى .

(علمه البيان) .. البيان هو التعبير والتوضيح وآليته كبيرة تبدأ من الرئتين وما فيها من قصبات وحجرات الى الحنجرة ثم الاحبال الصوتية والحنق واللسان والاسنان وما يربط ذلك من اعصاب تتصل بالدماغ .

لماذا اوردت ميزة البيان من غيرها من صفات الانسان علما بان الآلية التي تؤدي اليه ، تقريبا هي نفس الآلية الموجودة في الحيوان الناطق (الببغاء - نوع من انواع الطيور) وموجودة ايضا في الحيوان الابكم (سائر الحيوانات) ..

وهنا سر الاعجاز الالهي ، يتجلى بهذا الامراء، فنفس الآلية تجعل من الحيوان مخلوقا ابكم لا يستطيع التعبير عما يجيش في صدره حيث لم نسمع على مدى التاريخ ان حيوانا واحدا قد نطق .

وهذه الآلية بالذات جعلت من الببغاء ذلك الطائر الاليف ، مخلوقا ناطقا ولكن بدون وعي ولا

ادراك ، وهنا ايضا لم يذكر لنا التاريخ على مداه ان ببغاء واحدا قد اجتاز مرحلة النطق الى مرحلة البيان والتعبير مما يخلق في حناياه مرحلة الفهم والادراك الصحيح . وشأن الببغاء شأن المرد الذي يرجع الصوت كما هو ويحاكيه فيما يسمع منه . وما هذا ذلك فلا نطق ولا كلام .

وبنفس الآلية كان الانسان مخلوقا ناطقا محبرا مدركا يبين عن احساساته بالنطق ويعبر عنها بالهمسات ويرسم خوالج نفسه بدفقات من الهواء تخرج من بين اسنانه ولسانه .

لهذا كله امرد البيان وميز في خلق الانسان ا خلق الانسان .. عليه البيان) . لقد جعل الله لهذه الآلية سرا وميزة في الانسان ، فلو قال الله - وقوله الحق - خلق البيان : لقنا : سوف ينطق الحيوان لانه يتمتع بنفس الآلية او لكان من الواجب ان تختلف آلية الحيوان عن آلية الانسان ، والواقع انها واحدة في الاثنين لظهور القدرة والابداع مختلفة في النتيجة حيث مكنت الانسان من البيان الكامل ولم تمكن الحيوان الا من بعض الاصوات .

وثمة سؤال يطرح نفسه في هذا المجال : متى نطق ابو البشرية - آدم - هل كان ذلك عقب تلبسه بشرا سويا ام انه عاش فترة زمنية بدون نطق ، والجواب : انه لا يعقل ان يكون ناطقا وخالفه يقول (وصوركم فاحسن صوركم ..) ولابد لهذا المخلوق من ان يتعامل مع بيئته بحسب ما رسم له من غايات واهداف ، والتعامل يكون مبتورا لو كان هذا المخلوق ابكم لا يدرك شيئا ولا يستطيع التعبير عنه .

وآدم تعامل مع بيئته بالكلام والنطق منذ اول لحظة لدبيب الحياة في جسده والدليل على ذلك نستخرجه من قصة البشرية الاولى التي ذكرها الله بقوله الكريم :

(واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني اعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم باسمائهم ،

فلما انباهم باسمائهم قال : الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما تكتمون . واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فاولهما الشيطان عنها فخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين . فقلنا آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم - سورة البقرة - .

ومن سورة الاحزاب : (فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري منهما من سواتهما وقال : ما نهاكما ربكما من هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين . فذلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما الم انهكما من تلكا الشجرة واتل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالوا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

من هذا السرد الخاطف لكلام الله تعالى في قصة البشرية الاولى نستخرج عدة ملاحظات تناسب موضوعنا اهمها :

1 - خلق آدم كان امجازا للملائكة واطهارا لقدرة الله على تكوين مخلوق مادته من اخط العناصر ولكنه سام سمو الروح التي فيه ، عالم لامور لا تعلمها الملائكة الذين ينفذونه بالعنصر ويمتالون عليه بالنور .

2 - ان ما غرس في فطرة آدم من دوافع اساسية تدفعه الى التعامل مع هذه الارض واكتشاف خيراتنا وتحقيق خلافة الله فيها ، تلزمه ان يسمى كل شيء باسمه مما سيوضع تحت يديه ، ومما يراه في بيئته ، فكان ان عليه الله اسماء كل شيء بطريق الالهام ، فلما نزل الى ساحة المبارزة مع الملائكة كان يجيب على كل سؤال ويسمي كل شيء ، والملائكة لا تستطيع ذلك ، وتمت كلمة ربك (. الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .

3 — ان فكرة الخلود ، والملكية التي استطاع بها الشيطان ان يطغى آدم وزوجه وكذلك احسبهما بالخطيئة ، وطلب العفو بالاستغفار ، ومن ثم الرجوع والتوبة .. كل ذلك يتطلب لغة عالية ، ومنطقا رفيعا ، وبيانا اصيلا ، للتعبير منها .

اذن فالمحتبة الاولى ان الله خلق آدم وسواه بديه على احسن صورة واكمل شكل ناظرا سامعا ناطقا مبينا ، وانه نطق من اول لحظة تنسم فيها نسيم الحياة وتعامل مع بيئته وناسه باسمى لفظة وادق تعبير ...

نسبحان الذي يقول للشيء — اذا اراده — كن .. فيكون . وصديق الله اذ ائتمن على الانسان بقوله : **الم نجعل له عينين . ولسانا ولسنتين وهدى النساء النجدين .**

والسؤال الذي يتردد في هذا المجال : ما هي هذه اللغة التي تكلم بها الانسان الاول ؟؟

اللغة الام :

واوبة صغيرة الى التاريخ لتتصور من خلالها على شكل ممكن وقريب اول السلسلة البشرية منطلقين من آدم وهو ذكر نمرد على الارض والدس . جانبته زوجه حواء الانثى الفردة .

مقد عاش آدم على الارض زهاء 1.000 سنة ، وقد انجبت له حواء عشرين بطنا في كل بطن فكر وانثى . وبلغت ذريته في حال حياته قرابة 40 الف نسبة ، في — بوذ — وقد اوصى قبل موته الى ابنه ، شيث . سار آدم في حياته على نهج الصحف التي نزلت عليه فهو اول نبي واول رسول واليه ترجع مبادئ علم كل شيء استلزمته حياة البشرية الاولى .. ومات قبل الطوفان بنحو 726 سنة ، بعد ان ادى الى البشرية ما يلزمها من دواعي البقاء والاستمرار والتحسن . وبعد ما افرغ اوعية العلم الذي اودعه الله عنده .

واما شيث (الابن الوصي لمقد ولد في العام 130 من حياة ابيه آدم . عاش في مكة يهجد ويعتمر . وجمع الصحف التي نزلت على ابيه وخصها الى

الصحف التي نزلت عليه وهكذا كان شأن الانسان بارتباطه بالسما على كل فترة شيء جديد وعلوم جديدة تناسب الانسان في تطلعاته الجديدة لخصها الى سابقتها ويسير على نهجها — وشيث النبي سار على هذا النهج ، وقام بالامر والنهي والدلالة على طريق السعادة . ويقال انه بنى الكعبة بالحجارة والطين . وهي اول بيت وضع للناس ، ولعل بناء هذا البيت كان المحرك الاول لفكرة البناء التي اخذ بها الانسان من مصور حقيقة ، كما ان شيث (هو المعلم الاول في هذا الموضوع . والبناء الاول . ولد له نمر كثير ولكن الوصية كانت في ابنه (انوش) .

وتتابع هذه السلسلة التي هي اصل البشرية فيما بعد فانوش ولد له نمر كثير واما الوصي فهو ابنه قينان الذي ولد في العام (325) من حياة آدم ، وولد لقينان نمر كثير منهم (مهلائيل) وهو الوصي وولد لمهلائيل نمر كثير منهم (ليرد) وهو الوصي وولد ليرد نمر كثير منهم (اخنوخ) وهو الوصي .

واخنوخ هذا هو اديس النبي سمي اديسا لدراسته الصحف التي نزلت على آدم وشيث ، وادريس هو اول من نظر في علم النجوم والحساب ، وهو اول من غاط الثياب وقبس المخطط .. فهو اذن من تلك الحركات التي نبهت الدواعي العميقة في الانسان على درب البناء والتطلع الى المستقبل وتحسين الوسائل التي بين يديه واكتشاف ما خبيء من اسرار في هذه الارض وما يحيط بها .

ولد لادريس خلق كثير وكانت الوصية لابنائه متوشلخ ، وكذلك متوشلخ اوصى لابنه (لمك) . ولمك هذا هو ابو نوح الرسول . فكانت السلسلة من آدم الى نوح كما يلي :

آدم — شيث — انوش — قينان — مهلائيل — ليرد — اديس — متوشلخ — لمك — نوح .

ولقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها كانت على ملة الحق . وانما وقع الكفر والفساد في القرن الذي بعث فيه نوح بالانذار والوعيد حيث كثر الفساد وشاع الكفر والالحاد .

ولد نوح في العام 126 من موت آدم اي في العام 1126 ، من حياة البشرية وقد ارسل الى قومه ، ومكث فيهم يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر زمنا

طويلا ، لما آمن معه الا قليل فعدا دعوته المدمرة التي شملت كل مخلوق على الارض ، ما عدا اهل السفينة (وقال نوح : رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا - نوح 26 - 27 -) .

أمر نوح ببناء الفلك وعندما باشر فيها سخر قومه منه لانهم لم يتصوروا ان بناء ما سيعوم على وجه الماء ، وبهذا الفتح الجديد في عالم النجارة والمعوم بالمنجور على صفحة المياه يكون نوح احدى الحلقات في سلسلة العلوم واصولها التي بنت عليها البشرية ، وما زالت تبني حضاراتها المختلفة .

« واصنع الفلك باعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مفترقون . واصنع الفلك وكلما مر عليه ملا من قومه سخروا منه ، قال ان تسفروا منا فانا نسخر منكم كما تسفرون فسوف نعلمون من ياتي به عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل .. وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال ساوي الى جبل يقيصني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وهال بينهما الموج فكان من المفترقين . وقيل يا ارض ابلمي ماءك وبيا سماء اقلمي وغيش الماء وقضي الامر واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين . (هود) »

يتكلم علم الجيولوجيا عن اكثر من مرة طفت فيها مياه البحر والامطار الغزيرة على اليابسة لغمرتها كلها، وأحيانا تغمر اكثر اجزائها او بعضها ولكن مع اختلاف بين علماء الجيولوجيا حول تحديد تلك الازمنة الجيولوجية التي حدث فيها طغيان المياه على الارض وقرب تلك الحوادث من التاريخ البشري او بعدها منه .. وانكر على سبيل المثال حادثتين مما يذكره علم الجيولوجيا :

1 - حدث طغيان بحري عام (طغيان المصمر السينوماتي) دلت عليه الازماني الحواري في مختلف الاصقاع . وذلك في منتصف الدور الحواري (الكريتاسي) وهو آخر ادوار الزمن الثالثي الجيولوجي والذي تليه حقبة الحياة الحديثة .

2 - في دور الميوسين (الدور قبل الاخير من الزمن الثالث) تقلص البحر المتوسط الكبير (تيتيس) حتى اصبح اصغر رقعة من البحر المتوسط الحالي ، ثم طفت البحار على اليابسة فامتصت رقعة البحر المتوسط واصبحت ابعاده شبيهة بابعاده الحالية واغلق من الشرق ، وذلك في البليوسين . وهو الدور الاخير من ادوار الزمن الثالث - الملعب بحقبة الحياة الحديثة (دور بدء ظهور الانسان على الارض .

هذه المقالة الجيولوجية تتراوح بين تطبيقي الفطن واليقين حتى بين علماء الجيولوجيا انفسهم . واما الذي اومن به انا فهو ان الطوفان قد حصل ، وهو طغيان الماء على اليابسة بشكل عام ذلك الطغيان الذي دمر الحياة واغرق الاحياء والنبات ، ولا زالت الحفريات تكشف عن هيكل احياء تلك الحقبة من ناس وحيوانات وعن اشجارها ونباتاتها المطبورة .. وما البترول وتركيبه العضوي سوى دليل واضح على تلك الاجساد التي اغرقت بالماء ، وطمرت هوامل الانجراف . حيث ثبت بالتحليل وجود مواد في البترول تنتج مادة من تحليل يخضور النباتات او خضاب الدم .

كما ان الزمن الذي حصل فيه الطوفان قريب من زمننا هذا وعلى بعد (4.500 - 5.500) وهذا الرقم يكاد لا يذكر امام الارقام الخيالية التي يضمها علماء الجيولوجيا رغم اختلافها ، والذي دلت على افعال ما قالوا وتثبت هذا الرقم (4.500 - 5.500) هو :

1 - عدم اتفاقهم على رقم معين ، بالاضافة الى الفروق الشاسعة بين ارقامهم انفسهم .

2 - ما تعرضه على الخط الذي اتبعه في بعثي هذا من حيث البناء على الاخبار التاريخية فهي التي دلت على لوضع هذا الرقم .

لنرجع الى بحثنا الاصيل فاقول :

يعتبر نوح ابا البشرية بعد آدم حيث ان الذين ركبوا معه هم ابناءه واسرهم المؤمنون (قال عز وجل : وجعلنا ذريته هم الباقين .. ثم اغرقنا الآخرين . الصافات) .

وقد أجمع المؤرخون ان لنوح أربعة اولاد هم :
كنعان — سام — حام — يافث . لما كنعان مهسو
الفريق ، وابا الثلاثة الآخرون على نسلهم ترجع
البشرية .

وفي الحديث : الذي رواه اكثر من واحد من
طريق (قتادة والحسن وسيرة بن جندب ومهران بن
حصين) رضوان الله عليهم ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث ،
نسبهم ابو العرب ، وحام ابو الزنج ، ويافث ابو الروم »

نسبهم اذن ابو العرب ، واليه ترجع اللغات
السامية كلها ، وكان من اولاده ارم — وارمخش —
واشوذ — ولاوذ وعويلم .

وولد لارم بن سام : عوص — وغائر — وهويل ،
وولد لعوص : غائر بن عوص ، وعاد بن عوص ،
وعبيل بن عوص . وولد لغائر بن ارم : ثمود بن غائر
وجديس ابن غائر . وكانوا قوما حربا يتكلمون بهذا
اللسان المخري ، فكانت العرب تقول لهذه الامم :
العرب العاربة لانه لسانهم الذي جبلوا عليه ، ويقولون
لبني اساميل (ابن ابراهيم بن تارح بن ناحور بن
ساروخ ابن ارغوا بن فالغ بن غابر بن شالخ بن قينان
بن ارمخش بن سام) العرب المتعربة لانهم انما
تكلموا بلسان هذه الامم حين سكنوا بين اظهريهم . فعاد
وثمود والمعاليق (الكعمانيون) واميم وجلسم وجديس
وطسم هم العرب (كما يقول التاريخ) .

ومن ولد ارمخش بن سام الانبياء والرسول
وخيار الناس والعرب كلها والفراعنة بمصر ومن ولد
يافث ملوك الامم كلها من الترك والخزر وغيرهم ،
والفرس الذين آخر من ملك منهم يزديجرد بن شهريار
ابن ابرويز ونسبه ينتهي الى جيومرت بن يافث بن
نوح .

واما تحطان بن عابر الذي حكم اليمن والذي
هو اول من سلم عليه — (ابيت اللعن) فكانت
نسبه الى نوح كالاتي :

« نوح — سام — ارمخش — قينان — شالخ —
عابر — تحطان — يعرب .. وهكذا » ولقد ولد لعابر
(وهو ابو تحطان) تحطان ومالغ ، ومالغ معناه قاسم
وسمي بهذا الاسم لان الارض قسمت واللسن تبللت
في اياه .

وعلى ذكر بلبله اللسن ، ذكر المؤرخون ان اللغة
كانت واحدة بالنسبة لثرية نوح وقد تفرعت واختللت
فيما بعد ، وقد وردت عدة اسباب لهذا الاختلاف منها :
ما يقوله ابن جرير الطبري في تاريخه (ص 210 ج 1)

« وكان مولد مالغ بعد الطوفان بمئة واربعين سنة
لما كثر الناس بعد ذلك مع قرب عهدهم بالطوفان
هبوا ببناء مدينة تجمعهم فلا يفترون او صرح حال
يحرزهم من الطوفان ان كان مرة اخرى فلا يفترون ،
فأراد الله عز وجل ان يوهن امرهم ويخلف ظنهم ويعلمهم
ان الحول والقوة له ، فبدد نسلهم وشقت جسمهم وورق
السننهم ، وكان عمر عابر (474 سنة) »

« وقال الحارث بن محمد : كان يقال لعاد في
دهرم عاد ارم لما هلكت عاد قيل لثمود ارم ، لما
هلكت ثمود قيل لسان بني ارم : ارمان ، فهم النبط ،
فكل هؤلاء كان على الاسلام (أي التسليم لله الواحد)
وهم ببابل حتى ملكهم نمروذ بن كوش بن كنعان بن
حام بن نوح فدعاهم الى عبادة الاوثان ، ففعلوا
فامسوا وكلامهم السريانية ثم أصبحوا وقد بلبل الله
السننهم فجعل لا يعرف بعضهم كلام بعض ، فصار
لبني سام ثمانية عشر لسانا ولبني حام ثمانية عشر
لسانا ولبني يافث ستة وثلاثون لسانا ، ففهم الله
العربية عادا وعبيل وثمود وجديس وعيليق وطسم
واميم وبني يعطن بن عابر .

وبهذا الموجز التاريخي نكتفي لترجع السى
موضوعنا الاساسي ما هي اللغة الام التي تكلم بها
الانسان الاول ثم ورثها بنيه من بعده .

المعروف ان الاسرة هي المدرسة الاولى للانسان
فمنها يتلقى اول ما يتلقى اللغة ثم العادات والتقاليد ثم
الاخلاق والمثل .. الخ .

ومن السرد التاريخي الموجز الاتف الذكر نجد
بالضرورة ان السلسلة البشرية ما بين آدم ونوح
وبالتالي ابنائه (سام وحام ويافث) كانت تتكلم لغة
واحدة .

اولا — لان الصلة وثيقة بين الاب (الموصى)
والابن (الموصى له) .

ثانيا — لقلة العدد وغلبة الاجتماع في منطقة واحدة
— الا ما ندر .

ثالثا - لطول حياة آدم وقربها من مولد نوح عليهما السلام (126 سنة) .

فإذا ثبت ذلك نرجع لنبحث عن تلك اللغة الواحدة التي سادت تلك العتبة من التاريخ ودوت الفاظها على وجه البسيطة .

وبناء على ما تقدم : فإن آدم عليه السلام قد تكلم - أول ما تكلم - في الجنة قبل أن يهبط إلى الأرض ، وأجرى مناظرته في علم الأسماء مع أهل الجنة من ملائكة وغيرهم ، فما هي لغة أهل الجنة يا ترى ؟ ..

روى الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس وعن أبي هريرة بطرق مختلفة بمضد بعضها بعضا ، بهذا المعنى وبهذا اللفظ أحيانا وقريبا منه ما يلي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أحبوا العرب لثلاث لأنني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة في الجنة عربي » (12) .

وعلى هذا يكون آدم قد نطق بالعربية ومن ثم تعامل بها عند ما هبط إلى الأرض ولقنها لابنيه من بعده (والله أعلم) .

واستمرت هذه اللغة يتناقلها الأبناء عن الآباء حتى عهد نوح .

وإذا كان سلم بن نوح هو أب العرب ، فمن باب أولى أن يكون نوح أب العرب أيضا . وقد علم العربية لابنيه الآخرين حام ويافث ، وما تخصص سام بأبوة العرب إلا بمعنى ثبات أكثر فروعه على اللسان العربي بمعكس غالبية الفروع في حام ويافث التي تأثرت بالبيئات الجديدة وابتعدت عن موطن اللغة الأم لتطورت كلمات وتكونت لهجات ثم تعمقت لغات على درب البشرية الطويل ويوضح هذا المعنى أكثر فأكثر حديث الرسول الكريم الذي يقول فيه : « ليسست العربية لأهكم من أم ولا أب ، ولكن العربية هي هذا اللسان فمن نطق بالعربية فهو عربي » .

ونخلص إلى النظرية التالية :

العربية أم اللغات وأصلها الأصيل ، وكل اللغات الآرية والسامية والعامية كان أصلها لهجات عربية تولدت عنها وتطورت فيما بعد بحسب البيئات والحاجيات ثم تعمقت كلغات مستقلة على مر العصور .

يقول الإمام القلقشندي في موسومته (صبح الأعشى) (13) من اللغة العربية :

« أما أصلها فقد أخرج ابن أبي شيبة بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (تعلموا اللحن والفرائض فانه من دينكم) . قال يزيد بن هارون (اللحن هو اللغة) . ولا خفاء أنها امتن اللغات . وأوضحها بيانا . وأذلقتها لسانا وأدها رواقا ، وأعذبها مذاقا ، ومن ثم اختارها الله تعالى لأشرف رسله وخاتم أنبيائه وخيرته من خلقه وصلوته من بريته . وجعلها لغة أهل سبائه ، وسكان جنته ، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا ياتيئه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

« قال في صناعة الكتاب : وقد اتفقت اللغات كلها للغة العرب ، فاقبلت الهم اليها يتعلمونها »

وأما ظاهرة اختلاف اللسان وتعدد اللغات التي مر ذكرها آنفا ، للحكمة يريد بها الله ، والاختلاف بعد ذاته آية من آيات الله ، قال تعالى ذكره :

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السننكم واللغات . ان في ذلك آيات للعالمين » (الروم 22) .

والاختلاف لا يكون إلا من بعد الاتفاق ، والاتفاق كان على اللغة الأم ، ومن ثم تفرعت وتم اختلاف اللسان .

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلوا ولولا كلمة سبقت من ربك لغفر بينهم لئلا يهتفون » (يونس 19) .

ولعل هذا الاختلاف إنما كان لتعميق التماسك من أجل الإصلاح والانفصال والآخر ولعدم اجتماع الناس على الفساد ..

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » (البقرة 251) .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ... » (الحج 1) .

الطائفة :

من الماء ، وهذا يعني الساحل لان الساحل
ايضا هو ريف البحر وشاطئه .

من كلمة ريف جاءت كلمة (Ripa) اللاتينية
وهي بمعنى ساحل — ومنها Riviera
الاطالية : ساحل — ومنها Rivière الفرنسية:
وهي بمعنى ساحل قديما وهدينا بمعنى نهر —
ومنها Rive الفرنسية : ساحل — ومنها
River الانكليزية : بمعنى نهر .

2 — كلمة (صج) صوت اصطفاق العديد منها
(منج) آلة الطرب النحاسية . ومنها (منجة)
كلية الميزان — ومنها (منجة) حجر الميزان .
وبنفس المعنى جاءت كلمة (سنكة) الفارسية
وصيغت منها كلمة (سنك) اي الحجر . ومن
هذه كانت (Singan) السكونية — و (Sing) الانكليزية
وهي بمعنى ينفى .

3 — كلمة (بلاط) تعنى في العربية الارض المستوية
المساء . وهي ام الكلمات الآتية :

Platta اللاتينية بمعنى مصحبة .
Piazza الايطالية بمعنى ساحة .
Plate الفرنسية بمعنى طبق .
Piat الانكليزية بمعنى سطح .

وكلها تشترك بمعنى الاستواء والسطحية .

هذا نموذج مصغر مما قبل في علم ارجاع
اللغات الى اللغة الام (الترميس) . واما الوصول
الى درجة اليقين المثبت في هذه الناحية بالسذات
فيحتاج الى التحقيق والتدقيق المستمرين .

واخيرا يجيب هذا البحث على ما ورد من تساؤلات
في مطلعها ، وباليقين الثابت ان البشرية ترجع الى آدم
(عليه السلام) وان آدم لم يكن له مقدمات في عالمي
الجن والحيوان ، ولكنه كان على احسن صورة يتبع
بنفس الحواس والاجهزة التي يتبع بها انسان اليوم ،
ومنها النطق والبيان ، وقد اودع الله فيه من الاسرار
ما يكفي ليكون خليفته في ارضه ، كما ان الله سبحانه
وتعالى قد علمه اساء كل شيء مما سيتبع تحت
ناظره ويديه ، فكان هذا العلم ذخيرة من الالفاظ
والكلمات المدركة الجاهزة اخذ يطلعها على امرادها عند
الزوم ، وقد علمها ابناؤه وذريته قبل ان ينتقل الس
العالم الآخر ... وبغير هذا لا يقبل القتل ابدا ..

واما تعدد اللغات فهو ظاهرة طبيعية ومعقولة
ترجع الى تفرع اللهجات من اللغة الواحدة ، وبالتالي
تحققها على مر العصور ، وقد رافق ذلك استنباط
كلمات جديدة وتركيب الفاظ حديثة نتيجة لاسباب
مستعينة .

واما من اللغة الام فكان الجواب منها ثابا على
اساس الظن اليقيني او بتعبير آخر على قوى الظن،
وذلك لتولي ان العربية هي ام اللغات واصلها الاصيل.

ولقد بحث بعض علماء اللغات الجبة في موضوع
العربية وارجعوا كلمات كثيرة من اللغات الاخرى اليها
من ذلك ما قاله (14) الاستاذ عبد الحق فاضل (نزيل
المغرب العربي) :

1 — كلمة (ريف) في العربية معناها الارض القريبة

- 1) عندما نقل احد الباحثين المحققين هذا النص الى كتاب له ، علق هنا بقوله : « هذا مجرد رأي لهكسلي
بوصله — دارونيا — وهو طبعا يمز عليه ان يتراجع من فروض دارون كلية امام ضغط الحقائق
الجديدة ، ولكنه يتراجع بالفعل ، وهو يتظاهر بانه ثابت على اصول النظرية .. والانسان يحتوي
الكيان الحيواني من الناحية العضوية ولكنه ليس حيوانا بالمعنى الذي تقوله الدارونية » .
- 2) هنا يظهر تارجع هكسلي بين ضغط الحقائق وبين مقتضيات الاحاد والمادية .
- 3) نحن ننقل نموص هكسلي كما هي — بغض النظر عما يخالفه فيه في نشأة الانسان .
- 4) ص 123 — 124 من كتاب الخطر اليهودي — لمؤلفه محمد خليفة التونسي
- 5) ص 49 — 52 من كتاب التلمود — جمع عبد المنعم شميس .
- 6) طباعة دار المعارف بمصر (ذخائر العرب — 30)

- (7) الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية لمالكها ومديرها السيد عمر حسين الخشاب بمصر .
- (8) الكلام الموجود داخل الاتواس في الاسطر الاخيرة من هذا النص ليس من اصل النص بل هو تفسيري .
- (9) روى الحاكم من جابر قال : قرا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها . ثم قال مالي اراكم سكوتا . الجن كانوا احسن منكم ردا . لما قرأت عليهم هذه الآية : (غايي آلاء ربكما تكذبان قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد) . (تفسير سورة الرحمن في الجلالين)
- (10) كتاب شفاء الملل . لابن قيم الجوزية .
- (11) اخذت هذا الموجز بتصريف من تاريخ الطبري الجزء الاول من الصفحات الاولى حتى الصفحة 250 وعلى الاخص الصفحات 145 - 155 - 167 - 178 - 204 - 205 - 207 - 210 ، فليرجع اليها في حالة الاستزادة .
- (12) كشف الغطاء - ج 1 ص 54 - للحدث الشيخ اسماعيل بن محمد المجلوني الجراحي المتوفى سنة 1162 هـ .
- (13) الجزء الاول ص 148 .
- (14) بتصريف من العدد الخامس من مجلة اللسان العربي التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب (الرباط) . وقد جاء البحث تحت عنوان (علم الترسيب) .

